مقاربة سوسيولوجية حول منهجية ابن خلدون

أ. بلخضر محمد

قسم علم الاجتماع والديمغرافيا

جامعة الأغــواط

مقدمة :

تميز التواجد الاجتماعي الخلدوني بمناخ فكري جد خاص، وهذا من الناحيــة المعرفية التي عرفتها الإنسانية آنذاك، فالعرب اهتموا بل نجحوا في دراسة التاريخ ؛ بينما الجهة المقابلة أي الغرب انصب اهتمامهم المعرفي حول دراسة الفلسفة.

لكن الملفت للذهن هو أن ابن خلدون انفعل معرفيا وفكريا خارج مناخ مناهج المعرفة السائدة في عصره؛ ليحدث بذلك رد فعل أو انقلاب منهجي في عالم المعرفة على غرار ما هو موجود في عالم التاريخ.

وعليه نتساءل عن أهمية الأبعاد التي بواسطتها نقد بها من سبقوه ؟

وما هي طبيعة البديل المعرفي الذي اقترحــه مقارنـــة بمـــا اســـتقرأه مـــن واقعــه الاجتماعي؟

أولا : نقد المناهج السابقة :

إن ضبابية الأوضاع الاجتماعية وفسادها بمثابة المؤشر القريــب والمباشــر الذي دفع بابن خلدون إلى دراسة التاريخ، حيث يصرح مباشرة عــن عــدم عــزل تنبؤات الحاضر عن معطيات الماضي القريب أو البعيد .

وبالتالي فأول محاولة منهجية تبناها ابن خلدون هي التنقيب كخطــوة فـــي غيابات التاريخ من أجل فهم الحاضر.

لكن ابن خلدون من خلال خلفيته النقدية أو بالأحرى تجربته السياسية؛ جعلت منه يلجأ مباشرة إلى التفسيرات التاريخية ذات الصبغة المعرفية العقليـة والحسية (أو التجريدية) ؛ "... حيث يعرف النقد التاريخي الذي مارسه ابن خلـدون بالنقـد الباطني السلبي...."[1]، وهذا كله من أجل تبيان مدى مصداقية المؤرخين الذين سبقوا عصر ابن خلدون.

فما استقرأه من تاريخ الشعوب أوجد لديه نوع من الوعي النقدي الذي ساهم من خلاله نقد طرق المؤرخين، بل طرح ومناقشة عدة إشكاليات وهي :

ما هي مخرجات المعرفة التاريخية ؟ كيف ننتجها ؟ وهل هي عامل أساسـي في فهم المجتمع بطريقة ناجعة ؟.

إذن فالدافع أو المؤشر الحاسم في المعرفة الخلدونية هو محاولة فهم مجتمع عصره وتناقضاته المتواصلة، وهذا ما نسميه في العمل المنهجي "بالحيرة العلميـة" كأول خطوة في البحث .

ومن بين المناهج التي انتقدها ابن خلدون نجد "المنهج التاريخي الوصـفي"، الذي عجز حسبه على تفسير التغير البنائي الذي عرضه المجتمـع العربـي بـصفة عامة، بسبب الغزو المسيحي (الصليبي) وكذا الغزو المغولي، وهذا بعد أفول حضارة الأندلس.

ليعطي بذلك كله بديلا أو منهجا جديدا يقوم على الخبرة والتجربة والمشاهدة واستقراء التاريخ.

إذن فالمنهج الخلدوني لا يعتمد على الوصف ولا على التـدوين، لكـن هـو قراءة سوسيولوجية عميقة، واستقراء لواقع اجتماعي عايشه، حيث قرر هذا المنهج في فصول مقدمته وبالتحديد في دراسة العمران البشري وأصوله.

فقد خلص ابن خلدون التاريخ من خلال هذه الطريقة من الخيال، حيث أقـام المعرفة على التجربة، وبالتالي فالمنهج العربي الذي يمثله ابن خلدون في تلك الفترة

هو بمثابة منهج جديد الذي يعتبر خلاصة للنقد التاريخي (الباطني) ؛ أما المنهج الأوروبي الذي يقابله أوجست كونت يعمل على تحرير علم الاجتماع من الفلسفة وإعطائه صبغة وضعية تجريبية.

من خلال هذه النقاط الأخيرة نصل لنقول أن ابن خلدون بدون منازع هو مبتكر منهج جديد وملائم للواقع المدروس والذي يقوم على استقراء الواقع من خلال عصره ومجتمعه ؛ معتمدا في ذلك على تقنية هامة ألا وهي الملاحظة العلمية فهي بذلك نزعة تجريبيه، "..فهو في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين، تتمثل في ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر الاجتماع..."[2].

إن ابن خلدون من جراء ما سبق ذكره يعمل على استقراء أو استنطاق القوانين الاجتماعية وهذا من خلال المقارنة بين الظواهر الاجتماعية التي يلاحظها داخل المجتمع.

حيث هذا الأسلوب قد اتبعه فيما بعد إميل دوركايم في دراساته الاجتماعية حيث تبنى فكرة جوهرية وهي – لا سوسيولوجيا بدون مقارنة – *.

ثانيا : قواعد المنهج العلمي أو علمانية التاريخ عند ابن خلدون

ما يميز المنهج الخلدوني أنه منهج تكاملي وليس تجزيئيا، حيث أن قواعده تختزل العديد من المناهج الحديثة وحتى المعاصرة، خاصة مبادئ كل من المنهج الاستقرائي التجريبي والوضعي، وأهم قواعد المنهج الخلدوني ما يلي :

* **القاعدة الأولى :**

حيث تتمثل في النقد الباطني السلبي ؟ أساسها التحري من خلال التمحيص، وهذا من مصدر الخبر، حتى معرفة مدى صدق المؤرخ من عدمه، فقد يميل لفئة ينتصر لها (كالحكام مثلا)، وبالتالي غياب الموضوعية، وعليه ينبغي على المؤرخ أن يستلهم معلوماته من المصادر الأصلية دون الثانوية .

* **القاعدة الثانية :**

وهي الابتعاد عن التعنت للآراء الشخصانية وحتى القبلية، وهذا الرأي الخلدوني لحقه فيما بعد كذلك الرأي الدوركايمي من خلال قواعد المنهج في علم الاجتماع حيث يصر هذا الأخير على ابتعاد عالم الاجتماع عن كل رأي مسبق حول الظاهرة موضوع الدراسة.

لكن تبقى هاته العلة المنهجية قائمة إلى حد يومنا هذا، فإلى أي مدى يمكننا تحقيق أو بناء الموضوعية في العلوم الاجتماعية بصفة عامة وفي علم الاجتماع بصفة خاصة؟

أو كيف يمكن للدارس أن يتحكم في آراءه وأفكاره التي قد تضر أو تشوه إنتاج الفرضيات العلمية المتسقة بأي ظاهرة موضع الدراسة؟

* **القاعدة الثالثة :**

وهي اتساع الخيال المعرفي لدى المؤرخ، حيث لابد عليه أن يكون ذو دراية حسب ابن خلدون بـ: قواعد السياسة، أشكال العمران، الملك وتاريخ الأمم، الاقتصاد والسياسة في مختلف الأزمنة.

* **القاعدة الرابعة :**

وهي قاعدة الشك في الأخبار التي ترد من هنا وهناك على أسماع المؤرخ، حيث هذا الشك حسب ابن خلون يعمل على صرامة المنهج المعرفي للمؤرخ.

إذن فالشك لدى ابن خلدون من خلال هاته القاعدة هي نقطة بداية التأمل العقلي.

* **القاعدة الخامسة :**

لا يتوقف ابن خلدون عند مرحلة الشك، بل يواصل بطريقة منهجية ذكية، من أجل تحقيق لبنة معرفية أخرى تتمثل في "اليقين" ولا يتحقق ذلك إلا من خلال تجسيد المعرفة العقلية، فنمحص الأخبار ولا نقبل إلا ما قبله العقل.

*** القاعدة السادسة:**

وهي قاعدة العلية، حيث نجد أن منهج ابن خلدون يعتمد أساسا على تحليل الحوادث التاريخية وكذا معرفة وترصد عللها.

إذن فلكل ظاهرة سبب أو أسباب في حدوثها، فثمة تلازم في الحدوث، "... بحيث إذا وقعت الأولى فلابد كذلك أن تقع الثانية، وأطلق على هذه العلاقة الضرورية بين الحوادث اسم السببية..[3] " وكما سميت هذه العلاقة في نظريات أخرى بالحتمية أو بالأحرى حتمية الوقوع.

*** القاعدة السابعة:**

على غرار كل القواعد السابقة، يضل العمران البشري هو المقصد المنهجي الرئيس في عمل ابن خلدون، فمن خلال التعمق في تحليله، استقرأ ابن خلدون القوانين المتحكمة في الاجتماع الإنساني.

" ..فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننضر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به...وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه..[4]"

خاتمة :

إذ ما يمكن الوصول إليه هو أن الزلل في تحديد معالم المنهج الخلدوني تحديدا غير مجحف يعود سببه الرئيس إلى تباين رؤى شراح فكر ابن خلدون خاصة في تحديد موضوع المقدمة، فنتساءل هل أن ابن خلدون هو سحر لم يفهم أم أن شراحه أخطأوا فهم مقاصده؟

إذن لقد تمكن ابن خلدون بفضل استفراده بالمنهج الاستقرائي تجاوز التاريخ الوصفي الذي سبقه، واكتشاف علم جديد وهو علم العمران البشري الذي تولد عن التاريخ – أو كما يؤكد ذلك رايت ميلز – من الجيل الذي عقب ابن خلدون على أن التاريخ هو عصب علم الاجتماع؟ وهذا ما توصل إليه ابن خلدون من ذي قبل.

المراجع :

1. إزاد أحمد علي، وآخرون، الفكر الاجتماعي الخلدوني " المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية" بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2004.
2. علي عبد الواحد وافي، عبقرية ابن خلدون، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1973.
3. حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1970.
4. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، بيروت : دار القلم، 1978.
5. عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة: محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر : د.م.ج 1988.
6. محمد طه الحاجري، ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة، بيروت: دار النهضة العربية، بدون تاريخ.
7. حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني، " قواعد المنهج "، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.

الهوامش :

1 – حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1970، ص 124.

2 – على عبد الواحد وافي، عبقرية ابن خلدون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1973، ص 1973.

* – عبد الغني مغربي، دروس السنة الأولى ماجستير، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، ديسمبر 2000.

3 – زكي نجيب محمود، نظرية المعرفة، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1956، ص56.

4 – عبد الرحمن ابن خلدون، بيروت، دار القلم، 1978، ص ص 3 – 4.